التفاهة

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

بلا نهاية ، ستبقى قضتك .

وستقدمها للاذاعة على هذا النحو : بلا نهاية . تماما كقصتك معها ، هي ناهدة ، التي غابت منذ لحظات، تمسك بيدي طفليها . غابت من غير أن تبتسم بسمة اخيرة. من غير ان تلتفت اليك . ومع ذلك ، فقد كان حضورها يملأ المكان كله ، المقهى كله ، حتى لم يكن ثمة حضور اخر، وحتى حضورك انت ، كان يعاني الغيبوبة . فلما ان امحت ناهدة، استرد الناس حولك حضورهم ، واستردت الاشياء ، فهذا الكرسي الذي انت جالس عليه ، وهذه الطاولة التي تسند اليها يدك ، بل وهذا القلم في يدك ، كل ذلك عام على السطح ، كأنما كانت قد ابتلعته هوة . واحسست احساسا اليما بانك باق وحدك ، وان هذا القلم في يدك ، معلق في الهواء ، يستعصي عليه ان يسطر الخاتمة ، وان هذه الصفحة البيضاء ستظل ، تحديا لك ، بيضاء .

*

واغمض عينيه لحظة ، آملا ان يجد تحت جفنيه من جديد طيفها وهي تغيب ، مولية اياه ظهرها ، ممسكة بيد طفلها عن يسارها ، ويد طفلتها عن يمينها . وآلمه ان تكون العين اعجز من آلة التصوير ، فلا تملك القدرة على ان تثبت الصورة في الحدقة .

وظل لحظات يحاول ان يستحضر ملامح الوجه الذي غاب ، فاعجزه ذلك ، ولكن الصوت ، صوتها ، عاد يملأ سمعه . انه ليجد الان نفسه ، وهو يرفع رأسه عن اوراقه، اذ يسمع صوتا ينادي :

ـ تعال يا ماهر ، تعال

ووعى سريعا انه صوت ينبعث من اعماق السنين ، نافضا عنه رماد الزمن ، محدثا في سمعه وكيانه رجة خفيفة ، اشبه بالنفضة التي تحدثها الكهرباء حين تمس اصبعك . صوت حسب انه قد تلاشى الى الابد ، عبر الاعوام والاحداث . ولكنه ينبثق الان نابضا حيا ، كعهده به منذ سمعه للمرة الاولى ، وارتعش له .

وذكر انه احس نفسه يتململ فجأة في مقعده ، ثم ينهض على غير ما ارادة منه ، كأن قوة خفية رفعته من كتفيه . وكان ذلك قبل ان يرى وجهها ، لانه حين رآه ، عاد يجلس ، على غير ارادة منه كذلك ، كأن القوة الخفية نفسها شدته الى الارض، او كأن ساقيه كفتا عن ان تحملاه. وعجب ان يحس جسمه ، لاول مرة ، اشبه بالالة ، تقاد وتحرك من الخارج ، باصابع من مغنطيس .

وعلى بعدها النسبي عنه ، رأى ذاك الذي كان دليله اليها : ذاك الاحمرار يصبغ وجنتيها ، كلما كان نظره ونظرها يلتقيان . وذلك الاحمرار ، كان اميز ملامح شخصيتها : انها اذن ناهدة ، لان هذه الحمرة الشفقية هي حمرتها وحدها ، دون سواها .

واذن ، فقد رأته كما رآها . ولقد ظل فمها مفتوحا لحظات ، وكلمة « ماهر » معلقة بين شفتيها ما تزال . ثم افترت الشفتان عن ابتسامة بسمتها تلك التي يعرفها، مترددة قلقة . وخالجه شعور غريب بان وجوده هناك كان في غير محله ، وان يدا مؤذية قد القته في هذا المقهى . لا ريب في ان هذه المفاجأة قد احرجتها ، ومن هنا نبعت تلك الحمرة على وجنتيها . واصبح على يقين انها ما كانت تقصد هذا المقهى لو خامرها ظل من شك في انها قد تراه هنا . وانتهى الى الاحساس بما يشبه الذنب لحضوره في هذا المكان .

ولكنها فاجأته بالدنو منه ، والبسمة تشع على شفتيها ، وبادرته تقول :

ـ هذا انت ؟

فنهض يمد يده الى اليد الناصعة المبسوطة نحوه ، وهو يتمتم :

ـ مرحبا ناهدة .

وسمع خفق قلبه اذ نطقت شفتاه باسمها . وانبعثت على لسانه مرة واحدة تلك النكهة التي كان يتذوقها كلما نطق باسمها . وتساءل من اين جاءته هذه البساطة وتلك التلقائية في تسميتها ، رغم الحواجز والزمن والحاضر الواقع . وسرى اليه من اصابعها ، وهي في كفه ، دفء راعش ، ثم سمع صوته يتمتم :

ـ الا تتفضلين بالجلوس ؟

قالت في هدوء :

ـ لا . انني اريد ان ارى اين ذهب ماهر وهدى .

ولم تهم بالذهاب ، فشجعه ذلك على ان يقول :

ـ اين تريدينهما ان يذهبا ؟ لا بد انهما يلعبان في الباحة .

قالت في تردد :

ـ ومع ذلك ...

ولكنه رآها تستند الى كرسي موضوع بازاء طاولة مجاورة ، ملقية بجسمها على ظهره . وبلمحة واحدة ، استوعب تفاصيل هذا الجسد كله . انه ما يزال ممشوقا،

وا نكان قد امتلأ قليلا . ونظر الى وجهها الباسم في وثوق، ثم فاجأ نفسه وهو يقول لها :

ـ انك ما تزالين على نضارتك !

قالت ، وقد طفر ألى وجهها الاحمرار :

ـ صحيح ؟

فقال سريعا ، كأنما كان يخشى ان ينسى فكرته :

ـ وما يزال وجهك يحمر لاقل كلمة !

فتحولت بسمتها الى ضحكة صغيرة ، طفولية ، قبل ان تغيب الحمرة رويدا رويدا ، وقبل ان تقول له :

ـ وانت ، ما تزال تكتب القصص ؟

قال ضاحكا :

ـ وماذا نفعل غير ذلك ؟

وسرعان ما تساءل : اكان في سؤالها سخرية ، ام انه مجرد سؤال ؟

ثم مال الى الاعتقاد بانه لم يكن سؤالا ساذجا على اي حال ، لكأنها كانت تخفي خلفه علامة استفهام : وحياتك ، فيما وراء القصص ؟

وبدأ فعلا يفكر في جواب هذا التساؤل الذي ظن انه يخطر في ذهنها ، ولكن طفلا وصل في تلك اللحظة ، وهو يعدو ، فتشبث بيد ناهدة ، وهو يقول :

ـ ماما ، ماما ، اريد كوكا كولا .

فانحنت عليه تقبله في شعره ، ثم اومأت الى خادم المقهى ، وطلبت منه ان يحمل الى طاولتها زجاجتي كوكا كولا . وانطلق الطفل يعدو ثانية ، وهو ينادي اخته ليزف اليها البشرى .

قال :

ـ كم ولدا ؟

قالت :

ـ هذان الاثنان . ماهر وهدى .

وصمتت لحظة ، ثم سألته السؤال الذي كان ينتظر:

ـ وانت ؟

والقى الجواب الذي كان قد اعد :

ـ اعلى منك بدرجة واحدة : ثلاثة . بنتان وصبي.

ـ والصبي هو الاكبر ؟

ـ بل هو الاصغر .

وصمتت . وظلت صامتة . وبدأت شفافية الصمت تجرحه . ماذا لديه ليقوله لها بعد ، وماذا لديها ؟ لماذا لا ينصرف هو الى اوراقه ، ولماذا لا تنصرف هي الى ولديها؟ ما شأنه بها ؟

وفجر شفافية الصمت بلهجة جادة ، يكاد يكون فيها حقد :

ـ اتظلين واقفة ؟ اما تعبت ؟

فابتسمت واحمرت . ثم تحركت وهي تقول :

ـ يجب ان ارى الولدين .

قال وهو يغلق قلمه ، ويشعر بموجة الحقد تنمو في صدره :

ـ سيأتيان ليشربا الكوكا كولا ، فلا تقلقي .

ثم اضاف فجأة :

ـ ام تخافين ان يخطفهما احد ؟

واومأ باصبعه الى الكرسي الذي كانت مستندة اليه:

ـ اجلسي قليلا .

فاستدارت وجلست وهي تقول بصوت خيل اليه انها تستعير من لهجته هو نبرته :

ـ وما الفائدة ؟ الافضل ان ...

ولم تتم . ومد لها يده بعلبة السكاير . فاعتذرت . وحين نفث دخان سيكارته قال في نفسه انه دخان شفاف كهذا الصمت المزعج اللامجدي . وارسل مجة اخرى، وهو يتمنى أن يرى الدخان يكثف ويكثف حتى يحجب وجهها عنه ، ويغرق في التلاشي هذا الحضور المربك . ثم قالها، عبارته تلك التي ما فتئت تجول في حلقه ، منذ سمع نبأ زواجها :

ـ لماذا لم تنتظريني ؟

وسرعان ما ادرك انه سؤال فج ، وانه ما كان ينبغي له ان يطرحه . وازعجه هذا الاحساس ، فاذا هو يطرح السؤال مرة اخرى ، كأنما لينتقم من نفسه .

ونظرت اليه نظرة ساهمة ، ثم اغضت من غير ان تجيب . وعاد صوته اليه ، وقد رق قليلا وخلص من شائبة الحقد ، فقال :

ـ لماذا ؟ الم نتعاهد ؟

قالت وهي تنظر الى اصابعها :

ـ ما جدوى هذا الحديث الان ؟

فقال في هدوء :

ـ قد تكون الحياة كلها بلا جدوى . ولكن هذا لا يمنع اننا نعيشها .

قالت :

ـ غير ان من الافضل احيانا ان نتناسى اننا نعيشها. وخشي ان يقودهما هذا التجريد الذي بدأه الى زقاق مسدود ، فعاد يطرح سؤاله :

ـ الم نتعاهد ؟

فتمتمت وهي تطوي بين اصابعها منديلا ازرق وتبسطه :

ـ ما دمت مصرا على السؤال : وانت الم تكتب لك اختك ؟

ـ ماذا ... ماذا تقصدين ؟

ـ الم تخبرك ان هناك من يطلب يدي ؟

واحس بصفرة ابتسامته على شفتيه ، ثم قال شبه خائب :

ـ ظننت انك ادركت موقفي ...

قالت وقد اتسعت حدقتاها :

ـ واي موقف هو ؟

واطفأ عقب سيكارته في المنفضة وقال :

ـ لم ارد ان اضغط على حريتك في الخيار .

ـ كانت تلك فرصة امامك ، وما كان لي ان اغتصب

عهدنا اغتصابا ، فاجعلك تندمين على تفويت تلك الفرصة.

ورآها تبتسم ، ثم تقول :

— هذه المثالية ! الا تعتقد انها ... زائفة ؟

— زائفة ؟

— الم تكن تعرف منزلتك عندي ؟ ان تلك الحجة كانت تصلح لو كنت تشك في عاطفتي نحوك !

ولم تدعه يقول شيئا حين استطردت :

— كيف كنت تريدني ان اقنعهم جميعا بانني انتظرك، وانك ستطلب يدي لدى عودتك ، بينما لا تتنازل انت حتى بان تعلق على ما كانت تكتبه لك اختك من اخباري ؟

ثم اضافت بلهجة متحدية :

— بل ما يدريني انك انت لم تكن نادما على العهد الذي تعاهدناه ؟ ما يدريني انك لم تكن على علاقة بـ ... واحدة منهن هناك ؟

فابتسم وقال :

— ولكن طبيعة هذه العلاقة ... ستختلف من غير شك !

قالت : — ما كان لي انا ان اتنبأ بذلك ، بل كان عليك انت أن تقيم الدليل ...

ثم داخلت صوتها سخرية جديدة :

— لعلك كنت تهب نفسك كل الحريات ، حتى حرية الانقطاع عن مكاتبتي ... ثم تطلب مني ان التزم بكلمة تعاهدنا عليها !

ونظرت في عينيه باحداد :

— الا تعترف بان هذا هو ، على الاقل ، غير معقول؟

لم يكن يتوقع ، قبل لحظات فحسب ، ان يجد ذهنه خاليا من الجواب ، وفمه فارغا من الكلام. واحس احساسا كاملا بانها قد افحمته ، وانه يستسلم لحجتها . وآلمه شعوره هذا بالاعتراف ، فاخذه حس المكابرة ، على ادراك منه ، حين قال :

— وكذلك صمتك يا ناهدة ... انه غير معقول !

ورأى اصابعها تدعك المنديل وهي تقول في توتر :

— لماذا ؟ لماذا لم تكتب انك تريدني ؟ لماذا لم تقل ذلك لاختك على الاقل ؟ اما كان يحق لي ان احكم بانك نسيتني بعد ان صمت سنة ونصف السنة ؟

فتمتم في ضعف :

— ولكني لم اقل اني لا اريدك !

وسارعت تقول :

— ان هذا لا يكفي . انه موقف سلبي جدا ، بازاء موقف الرجل الذي اقبل يطلب يدي .

قال وهو يحس أن المكابرة تعاوده :

— كنت اعتقد ان العهد بيننا كان كافيا .

فكان جوابها سريعا هذه المرة كذلك :

— ان العهد كلمة مجردة . ولا بد من تقديم البراهين المحسوسة لمنحه قيمته .

واستتلت تقول :

— اما انا ، فقد ظللت طوال ثلاثة اشهر اماطل في اعطاء الجواب ، فيما كنت اتردد على اختك ، وانا انتظر ان يبلغني منها كلمة تدل على موقفك ...

قال :

— ولماذا لم تكتبي لي في ذلك ؟

— لاني كنت واثقة من ان اختك قد كتبت لك اكثر من مرة !

ثم تابعت :

— والحق انني انا التي لم اكن اريد ان احرجك او اغتصب عهدنا اغتصابا ... الا تعتقد انه كان مذلا لي ان اكتب اليك ، وانت صامت هناك ؟

واحس رأسه يثقل بين يديه ، وسمع صوته يأتيه واهنا :

— هكذا اذن ؟ هكذا اذن ...

ثم رآها فجأة تقف وقد امحى الاسى والتساؤل عن ملامحها وتقول :

— هذا على كل حال حديث غير مجد ... لقد .. تزوج كلانا الان !

فتمتم :

— هذا صحيح .. انها الحياة ..

وشعر انه ينطق بتفاهة ، فاخذه الغضب من نفسه، فقال وكأنما يرشقها بسهم :

— ويبدو انك سعيدة .. ولقد ازددت جمالا ونضارة ...

قالت ببساطة :

— لست شقية .

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● مدينة بلا قلب	لأحمد ع. حجازي	٢٠٠
● عيناك مهرجان	لشفيق المعلوف	٢٠٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠

وثوجهت اليه تسأله :

ـ وانت ؟

فنظر الى اوراقه ، ولم يجب . قالت :

ـ يبدو لي انك قد كبرت قليلا .

وقبل ان يعلق بشيء ، اخترق سمعهما صوت صرخة ثاقبة ، فالتفتا ، فاذا بالصبي منكب على وجهه فوق بلاط الباحة يصرخ ، واخته فوقه تحاول ان ترفعه .

وهب واقفا ، وانطلق يسابقها ليحمل الطفل بين يديه . ونبهته صرختها الى الدم الذي يسيل من انف الطفل ، فاحتضنه وعاد به الى حيث كانا يجلسان .

ونادى الخادم يطلب منه قطنا ، وحين جلس على كرسيه والطفل بين ذراعيه يبكي ، رأى ناهدة مقبلة عليه ، ممتقعة الوجه ، فاخذت منه طفلها ، وجلست به الى الطاولة المجاورة ، حيث كانت جالسة قبل لحظات .

واخذ يمسح دم الطفل عن انفه ، وقال :

ـ لندعه يستريح بعض الدقائق .

وقالت له بصوت واهن :

ـ انني انا المذنبة ... لقد غفلت عنهما .

قال وقد احس يده ترتعش :

ـ بل انا المذنب .. لقد شغلتك عن حاضرك ..

وخطرت له بقية العبارة « بماضي انا » ولكنه لم ينطق بها . واضاف :

ـ المعذرة يا ناهدة .

وعاودته تلك النكهة من اسمها على لسانه . ثم راح يلامس باصابعه خد الطفل الذي كان قد كف عن البكاء وفاجأ نفسه مرة اخرى وهو يقول :

ـ لقد كان من الممكن ان يكون ... ابني .

واقترب ، فاخذ الطفل الى صدره ، وقبله في جبينه ووجنتيه .

وحين نظر الى ناهدة ، رأى في عينيها دموعا . ولكنه لم يعرف السبب : الشعورها السابق بالذنب بكت ، ام لعبارته الاخيرة ، ام لانه ضم اليه ابنها ؟

*

ذهبت من غير ان تلتفت اليك ، من غير ان تبتسم بسمة اخيرة . ومع ذلك ، فقد كان حضورها يملأ المكان كله ، المقهى كله ، حتى لم يكن ثمة حضور آخر ، وحتى حضورك انت كان يعاني الغيبوبة .

وها هو ذا قلمك في يدك ، واوراقك على الطاولة ، ونقطة الدم ، هذه التي حاولت ان تمسحها فلم تذهب ، ما تزال باقية على كم سترتك .

نقطة الدم هذه ، هي كل ما تبقى لك .

اما هذه الصفحة ، فما يزال قلمك يستعصي على ان يسطر الخاتمة فيها .

بلا نهاية ، ستبقى قصتك .

بلا نهاية .

سهيل ادريس

الخروج

خرجت من غلاف قصتي المهراه
امسكت ثوب الريح .. فانخلعت عاريا
صرخت في برية الاضواء :
يا ابي !
فانطفأ الصوت
وانشقت البريه
بحثت عنك يا ابي خلف نوافذ المطر
بحثت عن انفاسك المعلقه
على مشاجب الهواء
بحثت .. يا ابي
على لوافت الموانىء المغلقه
عن اسمك الذي نسيته في لوثة الهجاس
في بيتك السري ..
في حافظة النقود .. في مملكة النعاس
فتشت عن ميراثنا الذي وهبته .. لنا
انا .. واخوتي الصغار
في زمن البذار قد منحتنا ...
ذكرت هذا انت .. في وصيتك
بحثت .. يا ابي .. فما وجدته
وانفجرت .. في وجهي المنشق .. شمس حزقيال
وانطفأت عيناي يا ابي .. وانت
ما بكيتني .. !!
تكسرت رجلاي في الطريق .. فانكفأت
فوق ظلي الصغير
دسته
من يومها يا سيدي .. لم استطع
ان .. اغلق الغلاف فوق جبهتي المحطمه
واخوتي المحنطون .. لن يميزوا ملامحي
فما الذي .. اردت لي .. يا ابتي !؟
حين احتقرتني .. اختطفتني .. من فرشتي
فان يكن .. يا سيدي .. جلدي انا متسخ
فانت قد مسحته بالزيت .. قد باركته
فما الذي استفدته .. ؟
لما تركتني .. في الظل .. يا ابي
دون غطاء

القاهرة

فرج صادق مكسيم